رحلة رسولية الى بلاد الجليل

بقلم حضرة الاب فرديناند توتل اليسوعيّ (تتمّة)

تمّت مع الصيام المبارك ايام رحلتنا الرسولية في بلاد الجليل فعدنا الى سيادة المطران غريغوريوس حجّار في حيفا وقدّمنا لهُ ثمرة الاعمال وتزوّدنا ببركتهِ . على اننا رأينا ان نضيف الى اخبار رحلتنا هذه معلومات اخرى عن عكا والناصرة وشفاعمر كنّا اجتنيناها في سياحة رسوليّة سابقة باشرناها لخدمة النفوس في تلك المحلّات في اواخر العام المنصرم

عكّا

دعاها الفينيقيون عكُّو واليونان بطلمايس والفرنج سان جان داكر (S' Jean d'Acre) والعرب عكا وهي من اقدم المدن الفلسطينيّة عهدًا

عكا من ابنية الفينيقيين جعلوها عند رأس كانوا يتمطون منهُ سفنهم وعند عودتهم من اسفارهم يجرُّونها الى اليابسة . بالقرب منها يجري نهرٌ اسمهُ نهر نعمان عرفهُ الاقدمون باسم بيلوس عند ضفافهِ اكتشف الفينيقيون تركيب الزجاج . قال فيهِ بلينوس : انّ بعض اهل فينيقية اوقدوا نارًا على ضفّة هذا النهر بعود القلى واذا بالرمل الذي هناك تحوّل زجاجاً فانتبهوا للامر وكان ذلك اوّل اصل اكتشاف الزجاج . وما لا ريب فيهِ ان صناعة الزجاج ورقيها ورواجها كلّ ذلك من فضل اجدادنا الفينيقيين الذين سكنوا هذه الديار

في القرن الثاني عشر للمسيح بعد ما فتح الفرنج بيت المقدس ساروا على سيف البحر واخذوا مدن الساحل ومنها عكّا على انها ما تمّت ان عادت الى يد الاسلام لكن الحملة الصليبيّة الثالثة استردّتها من المسلمين ومعها عود الصليب المقدّس الذي كان حصل في ايديهم منذ وقعة حطّين

واصبحت عكا في عهد الفرنج مركزًا لتجارة الغرب مع الشرق كان يؤمّها

التجار الاوروبيُّون الكثيرون ورُبَّما جمعت في مرفإها مئتي سفينة ولا يزال الخان الموجود فيها الى يومنا بالقرب من الميناء يشهد لرواج سوقها في ذلك العهد

وفي ١٢ نيسان سنة ١٢٩١ حاصرها الملك الاشرف ابن قلاوون فامتنع فيها الهيكليون وكانوا قد ارسلوا النساء والاطفال الى قبرس ثمَّ رأى بعضهم في اواسط ايار ان يستسلموا مع الامان . الَّا انَّ اعداءهم ما لبثوا ان فتكوا بهم فقتلوهم غدرًا فتضل رفقاؤهم متابعة القتال والموت تحت انقاض المدينة (٣١ أيَّار ١٢٩١)

في سنة ١٧٧٥ سقط ظاهر العمر في عكا بعد ما حكم بلاد الجليل زهاء ربع قرن

وفي ١٨ آذار سنة ١٧١٩ ضرب بونبرت الحصار على عكا وكان الجزَّار قد اصلح اسوارها المنيعة وهي من اعمال الصليبيّين وجهَّزها بمدافع قويَّة يديرها ضبَّاط اوروبيون وجعل فيها حامية عديدة تستمد المؤونة بحرًا من « سيدنه سميث » كومودور الاسطول الانكليزي . تلك كانت معدَّات الدفاع فضلًا عن شدَّة الجزار وفظاظة طباعه

امَّا الفرنسيون فتأذوا منذ بدء الحصار من قلة المؤونة والذخائر الحربيَّة وكانت المدافع التي غنمها الانكليز من اسطول الاميرال «بيره» فادارو هـا عليهم تعرقل حركاتهم وتمنعهم من التقرب من الاسوار . فا لبث ان فشا الطاعون والتيفوس في معسكرهم فاضطرَّ بونبرت الى الاقلاع عن عكا

وفي نيسان سنة ١٨٠٤ مات الجزار ودُفن في عكا في الجامع المعروف بجامع الباشا . زرنا قبره فرأيناه من خلال نافذة الجامع وهو قبر بسيط لا يمتاز عن سواه

وفي ٢٧ ايار سنة ١٨٣٢ فتح ابراهيم باشا عكا بعد ان حاصرها سبعة اشهر ثمَّ استولى على سوريَّة وتوغَّل في الاناضول وتهدَّد القسطنطينيَّة فاضطرَّتهُ الدول الى التنازل عن فتوحاته واظهارًا لعزمها على تنفيذ المعاهدات ارسلت الى عكا في ٢ ت ٢ ١٨٤٠ اسطولًا مؤلَّفًا من عشرين مركبًا حربيًّا فأمطر على المدينة وابلًا من القنابل

وفي سنة ١٨٤٣ عاد الاتراك واصلحوا اسوارها وحصَّنوهـا حتى أيَّام الحرب العظمى ولم يفطنوا بان الاستحكامات الضخمة لن تقوم زماناً طويلًا تجاه المدافع الحديثة

امَّا في أيَّامنا فقد اصبحت عكا كخيال بالنسبة الى مـا كانت عليهِ من العزّ

والغنى . ومع ذلك رأيتُ ان أتقصّى اخبارها واليك ما اتّصلت اليه . يتراوح عدد سكانها بين ٦٫٥٠٠ و٧٫٠٠٠ منهم ٥٥٠٠ مسلم سنّي ومن وجهائهم عبد الفتاح السعدي وتوفيق عبدالله حقي والشيخ ابراهيم العقي وصالح افندي المحمد وبيت الشاذلية والشرطي والكردي والشيخ اسعد الشقيري مفتي الاوردو الرابع

ويبلغ عدد النصارى نحو ١٣٠٠ منهم ٨٠٠ روم ارثوذكس و ٣٢٠ روماً كاثوليكيًا و٧٠ لاتينيًا و ٤٠ مارونيًا و ٤٠ بروتستانت والوجهاء من النصارى بيت الخوّام وسعد وفرح وكتفاكو وعزّام وبجوص وصفدي

ولا يزيد عدد اليهود عن عشرة والايرانيّين عن العشرين لان اغلبهم هاجروا الى حيفا لوقوف الحركة التجارية في عكا وشدّة الازمة فيها

على انّ الميناء لا تزال تشحن بعض محصولات كالحبوب والزيت والزيتون وترد الى الداخل فواكه وخضرًا وسمكًا وقد بلغت المراكب التي دخلت الميناء في خلال سنة واحدة ٥٩٦ مركبًا شراعيًا وباخرتين كان محمولها ٦١١٧ ثم ١٠٩٥ طنًا

وفي عكا مدرستان تديرهما الحكومة الواحدة للذكور والاخرى للاناث ومدرسة ابتدائية لراهبات الناصرة ومدرستان أخريان للروم الكاثوليك . وفيها مستشفى يخدمه طبيبان وما عداهما خمسة اطباء يخدمون الاهلين . وقد احتلّ فيها بعض الارمن المهاجرين من بلاد الاناضول

وللروم الكاثوليك في عكا كنيسة جميلة مرّ لنا ذكرها (في المشرق ٢١[١٩٢٣]: ٧٤٧) وفيها كنيسة للموارنة وكنيسة للاتين ولليهود كنيس واحد

وفي عكا جوامع عديدة اهمّها جامع الباشا بناه الجزار سنة ١٧٨٠ لهُ صحنٌ مربّع يحدق به اروقة مسقوفة وفي وسطه شجر البرتقال والنخل والسرو تخيّم بظلّها على قبور باشاوات عكا . وفي داخل المسجد قطع رخام جميلة وعواميد وتيجان وغيرها من الاحجار المنحوتة الثمينة التي اقتلعها الفاتحون من كنائس قيصرية وصور واستعملوها في البناء

وبينما كنّا نطّلع على المسجد تقدّم اليّ شاب من الدارسين وقال لي : ما بالك لا تدخل تصلّي . فادهشني كلامهُ وهو يراني بثوب الكهنوت . فنظرت اليه شزرًا فسكت الى ان تقدّم اليه رجل عاقل وقال لهُ : اتركه كلٌّ يصلّي على دينه .

وفي الجامع مدرسة للعلوم الاسلامية فسألت هل يتاح لي ان ارى المكتبة فتردَّد الشبان الذين كانوا حولي بامرهم ثم دعوني فدخلت غرفة فيها كتب عديدة كلُّها دينية الَّا البعض منها في التاريخ واللغة وقلَّما يوجد بينها كتاب حديث . ولمَّا طلبت ان أطَّلع على قائمة المكتبة قدَّم لي خازنها كتاباً فيهِ ردٌّ على النصارى . فقلتُ : حسبي . وخرجتُ .

وفي الجمعة الاخيرة من الليل بعد صياح الديك استيقظتُ فاذا صوتُ المؤذن يملأُ الفضاء ... داعياً قومهُ الى الصلاة فاسرعتُ الى اقام فرائضي الكهنوتيَّة واقامة الذبيحة الطاهرة

اقمت في عكا اسبوعين ملقياً فيها عظات الرياضة للسيدات اوَّلاً ثم للفتيات وأبَتْ تلك المسيحيات الصالحات الَّا ان يكون لرجالهنَّ واخوتهنَّ رياضةٌ خصوصية ففتحَتْ راهبات الناصرة كنيستهنَّ للرجال الى ان جاءتنا دعوة من السيد غريغوريوس حجَّار لتقيم الرياضة في كنيسته الكاتدرائيَّة ففعلنا فاستغرقت تسعة ايام ويوم اختتامها صباحاً ودَّعنا وجهاء المسيحيين في عكا وسرنا الى الناصرة شاكرين المولى على ما وجدناهُ من مظاهر التقوى والعبادة عند المؤمنين

الناصرة

فيها بشَّر رئيس الملائكة جبرائيل سليلةَ ملوك اسرائيل ابنةَ داود السيدة البتول مريم بسرّ التجسُّد (لوقا ١ : ٢٦—٣٩) . منها اشرق على العالم نور الحق سيدنا يسوع المسيح الكلمة الازلي الاقنوم الثاني من الثالوث الاقدس (لوقا ٢ : ١—١٩) وفيها قضى ثلاثين سنة من حياته المحتجبة (لوقا ٢ : ٣٩—٤٠) ثم تردد اليها في ايام حياته العامَّة (لوقا ٤ : ١٦) ومنها دُعي ناصريًّا (متى ٢ : ٢٣) كما دُعينا بها نصارى . وكل ما يوجد فيها من آثار مقدسة ومعاهد دينيَّة أقيم تذكارًا لتلك الاسرار الالهية المدهشة العقول

«هنا الكلمة صار جسداً وحلَّ فينا» (يوحنا ١ : ١٤)

هذه هي الكلمات التي يقرأها المؤمنون منقوشة على الرخام في مغارة كنيسة

البشارة الملوكية المبنية على آثار قديمة العهد يعتبرها التقليد منذ القرون الاولى مكان إقامة مريم العذراء لمّا دخلَ عليها الملاك

على عهد قسطنطين بُنيت في هذا المكان كنيسة زارها سنة ٥٧٠ مؤرخٌ مُغفلٌ يُعرف بالزائر البليزنسي (Anonyme de Plaisance)

وفي سنة ٦٣٦ فتح العرب الناصرة ولم يخربوا معابدها لكنهم ضربوا على زوّارها الضرائب

واخذ الصليبيون الناصرة سنة ١٠٩٩ وجعلوها قاعدةً لإمارة الجليل واقاموا فيها كرسي اسقفية بَيْسان وزارها مار لويس ملك فرنسة سنة ١٢٥٢ . وفي سنة ١٢٦٣ دخل الناصرة الملك بيبرس وعاث فيها فسادًا ودمّر كنيسة البشارة تدميرًا

وفي سنة ١٦٢٠ رسخت في الناصرة قدم الاباء الفرنسيسكان بفضل تعطُّف الامير فخر الدين على المسيحيين وحماية قنصل فرنسة في صيدا.

واظهر ظاهر العُمَر (١٧٠٠—١٧٧٥) إكرامهُ لكنيسة البشارة فكان قنديلٌ يضيء فيها ليل نهار على نفقته . ودخلها ايضاً بونبرت لمّا حلّ الفرنسويون في الناصرة سنة ١٧٩٩ . وفي أيام الحرب الكونية اصبحت المدينة مستودعاً للزاد ودفنوا فيها بالقرب من مستشفى اخوة مار يوحنا الالهي ٤٨ من رجال الطيران الالمان واغلبهم من اشراف بلادهم لا تزال قبورهم في ظلّ الصلبان وقد نُصبت عليها من بقايا اخشاب الطيارات التي هوت بهم الى الموت في ساحة الشرف

لايعني المقام ان اذكر كل ما في هذه المدينة المقدّسة من الآثار الكريمة والمعابد التي يقصدها الزوار من اربعة اقطار المسكونة بل أقتصر على تدوين ما لحظتهُ بعيني واختبرتهُ بنفسي مما لم يُذكر بعد في الكتب الشائعة بين العامة

عدد النفوس في الناصرة ٦،٥٠٠ بحسب الاحصاء العام و ٩،٠٠٠ بحسب تخمين الاهالي يُقسَمون ثلثة اثلاث متساوية من مسلمين وروم كاثوليك واورثذكس

ومن وجهاء الروم الكاثوليك بيت شومر وتابري ومزاوي وسروجي ولحام وزهر وحداد . ومن وجهاء اللاتين بيت صالح وبطحين وطنوس . ومن الموارنة بيت الحلو وشمردق وشكلو ومرشه وجبور . ومن الارثوذكس بيت قعود وفرح والخليفية والحنادسة . ومن وجهاء الاسلام بيت فهوم وعباس وظاهر (الزيادنة)

تجوّلنا في ازقّة الناصرة ابّان حلولنا فيها في اوائل الشتاء فكان الرواج فيها للحدّادين لان موسم الفلاحة كان قريباً وكان اهل القرى المجاورة يأتون المدينة ليصلحوا ادواتهم الزراعية او يشتروا غيرها

وممّا يُلفت النظر أوّجه الاولاد الصبوحة فكأن السيد المسيح اراد ان يدل على سحنة مواطنيهِ شيئاً من طهارة ملامحهِ . وقد عنّ لي ان ألقي عظات رياضة خصوصية لاولاد مدرسة الروم الكاثوليك وذلك في المعبد الذي يكرمون فيهِ آثار المجمع القديم الذي دخله يسوع وقام فيهِ مرشداً بين مواطنيهِ كما رواه القديس لوقا (٤ : ١٦—٣١) قال :

« وأتى يسوع الى الناصرة حيث نشأ ودخل كعادتهِ الى المجمع وقام ليقرأ . فدُفع اليهِ سفر إشيا النبي فلما فتح السفر وجد الموضع المكتوب فيه « ان روح الرب عليَّ ولاجل ذلك مسحني وارسلني لأُبشر المساكين وأشفي منكسري القلوب وأُنادي للمأسورين بالتخلية وللعميان بالبصر وأُطلق المهشمين الى الخلاص وأكرز بسنة الرب المقبولة ويوم الجزاء» . ثم طوى السفر ودفعه الى الخادم وجلس وكانت عيون جميع الذين في المجمع شاخصةً اليهِ فجعل يقول لهم : اليوم تمّت هذه الكتابة التي تُليت على مسامعكم وكان جميعهم يشهدون لهُ ويتعجبون من كلام النعمة البارز من فيهِ ويقولون : أليس هذا هو ابن يوسف . فقال لهم : لا شك انكم تقولون لي هذا المثل ايها الطبيب اشفِ نفسك كلَّ ما سمعنا انك بسنتهُ في كفرناحوم اصنع ايضاً ههنا في وطنك . وقال لهم : الحقّ اقول لكم انه ليس نبيٌّ مقبولاً في وطنه . . . »

ثمّ ضرب لهم مثلين مثل ايليّا النبي الذي لم يُبعَث في أيام المجاعة الّا الى أرملة صَرفتَ صيدا . ومثل أليشع النبي الذي لم يطهّر من البرص غير نعمان السوري

اراد بذلك ان يبيّن لهم عدم استحقاقهم لان يعمل بينهم العجائب ولذلك يختم القديس لوقا كلامهُ بقولهِ :

« فلما سمع هذا الذين في المجمع امتلأوا كلهم غضباً فقاموا واخرجوهُ الى خارج المدينة واتادوه الى قمّة الجبل الذي كانت مدينتهم مبنيةً عليهِ ليطرحوه عنها امّا هو فجاز في وسطهم ومضى »

وبما ان اليهود بقوا في الناصرة مدة اجيال بعد موت المسيح ولا حرَج عليهم لم يزل مجمعهم هذا معروفاً الى ان حوّلهُ النصارى في القرن الخامس او السادس للميلاد الى كنيسةٍ زارها « البليزنسي » المذكور ومع تطوُّر الايام لم يمتْ ذكر هذا المكان المقدّس فقد شاهد فيه كنيسةَ احد زوار القرن الثاني عشر . وروى آخر سنة ١٦٥٢

انّ تلك الكنيسة كانت معروفة وعيّن مجاها في «اواسط المدينة»

وفي سنة ١٧٤١ ابتاع الآباء الفرنسيسكان انقاضاً كانت في تلك الارض وشادوا عليها معبداً تنازلوا عنه الى الملكيين بعد ان ربطوهم بالوحدة الكاثوليكية

وفي جوار المجمع القديم بُنيت كنيسة جميلة على اسم البشارة للروم الكاثوليك يقوم بخدمتها حضرة الارشمندريت اسطفان زيتوني تحت رعاية السيد غريغوريوس حجار تسنى لنا ان نلقي فيها قُبَيل عيد الميلاد سنة ١٩٢٢ رياضة للرجال

كنيسة يسوع الصبي الملوكية

في شمالي المدينة الغربي جبل بنى عليه الآباء السالزيون كنيسة يسوع الصبي يشاهد الناظر من ابراجها مدينة الناصرة وما وراءها جنوباً مرج ابن العامر وقرة تانين ويرى مرفأ حيفا وجبال الكرمل غرباً وجبال جلعاد شرقاً وما وراء بحيرة طبرية

هذه الكنيسة الملوكية آية من فنّ البناء القوطي الخالص (انظر صورتها) رسمها المهندس غوتيه وراقب عمارها احد ابناء الناصرة المعروف باسم داود وعُني بجمع الاموال لعمارها حضرة الاب ريكيه رئيس السالزيين في الناصرة حالاً

وكلها بُنيت على نفقة السيدة الافرنسية فوش دي سرفيلي والسيد ماكس كارون (Foache de Cervilly et Max Caron)

حالما يدخلها المؤمن يشعر كأن نفسه تتملّى بروح هذا المعبد روح الطهارة كما يحلم بها احبّاؤها ويعشقونها انيقةً بيضاء مجنحةً اشبه منها بالارواح. في شرقنا العزيز معابد كثيرة عُني المؤمنون بزينتها وتأنيقها لكني لا اظن ان معبداً منها يرفع القلوب الى ما فوق الزخارف الفنية حتى الكمال الالهي مثل كنيسة يسوع الصبي

تشقّ عواميدها الفضاء رشيقةً هيفاء حتى اذا اقتربت من السقف تشعّبت اربع زواياها بخطوط تتسلّق جوف الحنيّة وتمتدّ الى منتصف ظهر العمار حيث تلتقي بخطوط أُخر تأتيها من تجاهها فلا ترسم معها اقواساً كما في الفنّ السوري لكن تنقطع امامها فينتج من قطع الخطوط المنحنية صورة اقواس مقصوفة بنصفها وهذه هي مزية الطرز القوطي (style gothique) الجوهرية في البناء.

ولهُ ايضاً مزايا تفرقهُ عن الفن السوري الشرقي فبينما كنائسنا وغيرها من المعاهد

الدينية تظهر بالوانها مزخرفة جميلة تحت قبة تحجب منظر السماء وتبهر عيون المؤمنين فتقرّ لها تعاينهُ في بيت الله من بهاء وجلال. ترى الكتائب الغربية المبنية على الطرز القوطي بيضاء الداخل بل رمتّمة احياناً حتى اذا ركع فيها المؤمن ورفع رأسهُ طاش نظره باتباع خطوط العواميد وهي تشق الفضاء كأنها ليس لها قرار فيتذكر المسيحي انّ لا مقرّ له على الارض

وهذا ما يشعر بهِ الزائر اذا دخل كنيسة يسوع الصبي في الناصرة

تمثال يسوع الصبي

وفي صدرها فوق المذبح تمثال يسوع الصبي وهو ابن ثماني عشرة سنة على وجهه امارات الفضائل الالهية الانسانية التي تفرّد بها : الطهارة والوداعة والذكاء

ولاتحته شرقية كلوا تحنا بيده الشمال يتكئ على عصاً يعلوهُ الصليب وبيده اليمنى يدعو الشبان ليسيروا معه وكأنَّ رجله اليمنى تتحرَّك للسير

ما اجمل هذا التمثال وما اسمى عاطفة الايمان التي اوحت برسمه لابن الفن . قد اعتاد بعض اهل الشرق (وبئس العادة تسربت الينا من الوثنية من ديانة اللحم والدم) ان يروا في سنّ الصبا سنّ التمتع بالشهوات يا ليتهم يبدون ما في سنّ الصبا من جمال وكمال اذا عرف الشاب ان يحفظ فضيلة الطهارة فليس من بهاء يسبي قلوب الملائكة والبشر كبهاء زهرة الطهارة تلوح على محيَّا الصبي المسيحي وهو في ربيع العمر . تلك الفضيلة تفوح رائحتها في كنيسة يسوع الصبي في الناصرة وتملأ القلوب لانها على القمم قريبة من السماء بعيدة عن الارض التي يطرقها العامة

وسوف تأتي بدعةٌ من البدع اذا اقاموا ما بين جدرانها تماثيل للقديسين الذين امتازوا بطهارتهم وعاشوا ملائكةً متقمصين بجسد انسان : كلويس غونزاغا وستانيسلاوس كوستكا ويوحنا برکمنس والطوباوي جبرائيل الأُمّ الحزينة والطوباوية ترازية يسوع الطفل . . .

وقد اصبح هذا المعبد مزارًا لزائري الجليل والناصرة ففي ٦ ايلول سنة ١٩٢٢ زارهُ سيادة المطران بودرلیار رئيس المعهد الكاثوليكي في باريس مع عدد عديد من المؤمنين وكانوا يحملون سجلًّا ضخماً كتبوا عليه اسماء ثلاثين الف صبي او صبية كرّسوا شبابهم ليسوع الصبي وكان ذاك الحج هو الحادي والخمسون للآباء الصمرديين

شفا عُمَر

قد سبق الاديب محمّد سليم الانسي والمرحوم الاب انطون رباط فوصفا شفاعمر وصفاً مطوَّلًا من حيث اسمها وتاريخها وآثارها واخلاق اهلها في المشرق (٨[١٩٠٥] : ١٠٣٣—١٠٣٨) فلا نرى موجباً لتكراره اذ ليس في الاعادة افادة - وانّما يجدر بنا ان نذكر اهمّ أُسرها كما ذكرنا اعيان الامكنة التي زرناها فينتمي النصارى في شفاعمر الى بيوت تلحمه وكركبه وعزّام وحداد وارمله . وزعيم الاسلام فيها محمّد خمادي . وراعي النفوس للطائفة الكاثوليكية هو الاب الفاضل الخوري اغابيوس عطايا المخلصي

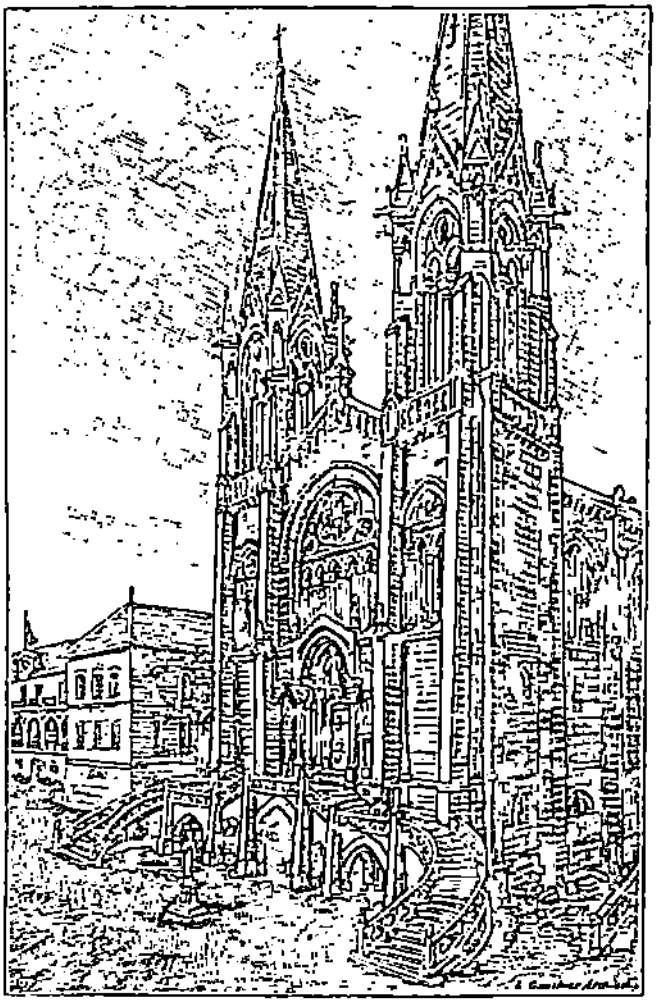

كنيسة يسوع الصبي في الناصرة

وفي شفاعمر مدافن قديمة سبقت عهد العرب قد وصفها حضرة الاب سبستيان رتژال (Mélanges de la Fac. Or., III, 33°-34°) ونشر صورها وهي منقورة في الصخر . بينها مدفنان في مدخلهما نقوش لطيفة يرقيها حضرتهُ الى القرن السادس للميلاد . وقد بيَّن انها بقايا من الصناعة المسيحيَّة التي شاعت في ذلك الزمان وقابلها بآثار اخرى تشبهها في فرنسة وايطالية وتظهر ما بين هذه النقوش من العلاقة على اختلاف مواقعها

عبلين

لا نجد ما يحسن بنا ان نزيد في وصف عبلين على ما اوردتهُ مجلَّة المشرق (٨[١٩٠٥]: ١٠٣٤—١٠٣٥) . ومما لم يذكر هناك انَّ هذه القرية وطن الاخت مريم يسوع المصلوب الكرملية المتوفَّاة في بيت لحم في ٢٦ آب سنة ١٨٧٨ وقد فاح من شخصها عطر قداسة لا يزال يزكو مع ذكرها في النفوس التي حظيت بمعرفتها في حياتها او بما بلغها من اخبارها بعد مماتها

على الرغم من متاعب الرياضة وضيقة الوقت رغبتُ ان لا ابارح شفاعمر دون ان أرى رأي العيان ما بقي من بيت خادمة الله المذكورة التي تسعى الكنيسة بفحص سيرتها لتنظمها في مصافّ الطوبويين فتكون مجدًا للشرق ورابطة بين قديسي القرون الاولى وبيننا اذ تكون اول شرقيَّة نكرمها على الهياكل من ابناء سوريَّة منذ قرون عديدة

دخلتُ الكنيسة التي تمتدت فيها مريم وقتُها بخطواتي فاذا طولها ٢٢ خطوة وعرضها ١٢ وسقفها معقود كالقبو وفي وسطها عمود كان عليهِ الجرن الذي فيه صُبغت بماه المعموديَّة اما الآن فوضعوا على العمود غطاء واتَّخذوهُ كقرَّاءة للصلوات الطقسيَّة . ويوجه الهيكل ستار حديث أهدته راهبات الناصرة لكنيسة عبلين . وعلى الهيكل نفسهِ مسدول غطاء آخر أرجواني قدَّمته راهبات الكرمل اكراماً لاختهنَّ

وقريباً من الكنيسة آثار بيت جرجس بواردي ومريم شاهين ابوي مريم يسوع المصلوب وهي عبارة عن احجار متراكمة وبقايا درج وقنطرة ما زالت معقودة في الفضاء تحقَّقنا من فحصها انَّها كانت على شبه سائر الساكن في عبلين والقناطر فيها تحمل

السقف وتفصل بين الغرفة الواسعة المخصصة للحيوانات والمصطبة العريضة المفروشة للسكان . وهناك قطعة جسر خشب غليظ كبير كان يحمل سقف بيت مريم يسوع المصلوب . وبالقرب من الدار جرن اصله تاجٌ لعمود قديم يروون انهُ كان جرناً يصنع فيهِ البارود جرجس ابو مريم وتلك كانت مهنته وبها عُرف بالبواردي

وقد بقيت انقاض هذه الدار مهملةً لا يكترث لها احد الى ان شاع صيت قداسة الراهبة فجعل الناس يأتون لزيارة مسقط رأسها الحالي وهو اليوم ملك الخواجا اسعد توفيق من طائفة الروم الكاثوليك وقد انتقل اولًا بطريق الشراء من اسرة بواردي بعد وفاة جرجس بواردي الى المدعو فرح ثمَّ الى اسعد حبيب حتى انتهى الى اسعد توفيق المذكور . وبلغني ان سيادة المطران غريغوريوس يسعى في شراء هذه الارض الحقيرة وبقايا الانقاض حفظاً على ذكر مريم يسوع المصلوب ابنة ايرشيته

واذا صحَّ ما سمعناه عن مصدر يوثق به ان جرجس بواردي ومريم شاهين اصلها من دمشق ومن لبنان وان اصل عائلة مريم من الطائفة المارونية (١) وانها لما حلَّت عبلين ولم يكن فيها كنيسة للموارنة انتمت الى الطائفة الملكية الكاثوليكية فيكون الامر شاهداً جلياً لعناية الله تعالى بكنيسته ووَحدتها هو الذي اتخذ له صفيَّةً هذه الابنة التي تقدست في الطائفة اللاتينيَّة وتعبدت في الملكية وفي عروقها دم المارونية فسبحان موحد القلوب

***

بلغنا آخر محطة من رحلتنا في هذا العام بعد ما قضينا ثلاثة اشهر نتجول في الجليل فاختلطنا بالسكان وتعرفنا عن كثب بحضرة الاباء الخوارنة وتحققنا بامّ العين الخير العظيم الذي يحصل في الاراضي المقدسة بهمة الاكليروس ورأينا الموانع التي تحول دون نجاح مشاريعهم نجاحاً سريعاً ثابتاً فيجدر بنا ان نختتم مقالتنا بابداء بعض الافكار التي تدور في خلد كل من انعم النظر في حياتنا الدينيَّة والادبيَّة

(١) ولعلَّ الاصحَّ انَّ اصل والدها من الطائفة المارونيَّة فانَّ حضرة راهبة الناصرة الامّ يكوله (la Mère Bécoulet) افادتنا في مكتوب كُتب من عكا باسمها في ١٦ ت٢ انها سمعت من شقيقة مريم يسوع المصلوب انَّ اصل عائلة ابيها من الطائفة المارونيَّة . فندوّن الخبر دون الجزم به كما بلغنا (المشرق)

كنت اودع اخوتي الكهنة في الجليل وقلبي ملؤه الاحترام لما كنت اجده عندهم من الضنك في العيش والصبر على المحن والهمة في سبيل مصالح رعاياهم فلا يحدث امر ذو شأن في القرى الا ويلجأ اهلوها الى خادم رعيتهم وهو حقيقةً ابوهم ومساعدهم لكن لهذه الحالة خطر يبدو لكل عاقل مفكر . ان وقت الكاهن اقصر من ان يستطيع ان يصرفهُ في مصالح ابنائهِ الزمنية اذ يصعب عليهِ القيام بواجباتهِ الكهنوتية اعني الصلاة والعناية بكنيسته وتثقيف الاولاد بالتعليم المسيحي فربَّ اولادٍ لا يكادون يعرفون الصلوات الضرورية وان لم يكترث بهم الراعي يبقوا جاهلين ديانتهم حتى اذا نشأوا وانهمكوا في شؤون العالم زلَّت قدمهم لادنى عثار في طريقهم . فكم منهم غيَّروا دينهم وذهبوا هذا الى شقاقهِ القديم وهذا الى البدع البروتستانية وقد يتقلَّب الواحد بين المذهبين يوماً مع الكاثوليك ويوماً مع سواهم وذلك لدواعي عالميَّة لا تؤثر عادةً في النفوس المتنورة بحقائق الايمان الصحيح

يا ليتنا نحن كهنة المدن نعرف ما هناك في القرى البعيدة من نفوس سهلة فداها المسيح بدمه الزكي وليس لها من يرشدها فتمدَّ يد المساعدة الى اخوتنا كهنة القرى الذين يصحُّ فيهم قول الرسول انهم « خدَّام الله في الصبر الكثير والمضايق والضرورات والمشقَّات والجلدات والسجون والاضطرابات والاتعاب والاسهار والاصوام والطهارة والعلم والاناة والرفق والروح القدس والمحبة بلا رياء بكلمة الحق وقوة الله . . . » (٢ كور ٦ : ٤—٧)

وليس الجهل الآفة الوحيدة التي غشيت تلك الاصقاع ولعلَّ ما شاع بين اهلها من الشقاق والخلاف وتفرُّق الكلمة اسوأ واضرّ فانَّ ما كانت عليهِ فلسطين في القرون التابعة لتنظُّر قسطنطين حيث كان الاهلون على دين واحد خاضعين لكنيسة واحدة ساعين الى غاية واحدة جامعة بين دينهم ودنياهم . واليوم ترى تعدُّد الاديان وتباين الاحزاب واختلاف الكلمة فمن لنا برسول ينشر فيهم دعوة الاتحاد فتصدق فيهم رعيَّة واحدة وراعٍ واحد . فانَّهم كلَّما اقتربوا من الوحدة التي كان عليها آباؤهم ازدادوا رقياً وعمراناً حقَّق الله هذه الاماني قريباً ان شاء الله !